كلمتك في المرة السابقة عن إنكار الذات،
وما يزال هناك كثير أقواله لك في هذا الموضوع حتى نصل سويًا إلى

انطلاق الروح [1]

أتريد يا أخي أن تصل إلى الله؟ أتحب أن تردد عبارة الطوباوي بولس "لِيَ اشْتِهَاءٌ أَنْ أَنْطَلِقَ وَأَكُونَ مَعَ الْمَسِيحِ، ذَاكَ أَفْضَلُ جِدًّا" (في١: ٢٣)، إذن فانطلق أولًا من ذاتك. من ذاتك التي تعبدها بدلًا من الله، وتحاول باستمرار أن تراها ممجدة معظمة أمام الآخرين.

هل يمجدك العالم يا أخي الحبيب؟ وهل تقبل منه هذا التمجيد؟ يا لك من مسكين... ألست تعلم أن المجد لله وحده؟ لأنه خالق الكل، ومصدر جميع الكائنات؟ ولأنه الوحيد الواجب الوجود، والأزلي، والقادر على كل شيء، والمالئ كل مكان... ألست تعلم إذن إنك إن مجدت ذاتك، أو مجدك الناس، فإنما تسلب صفة من صفات الله وتنسبها إلى نفسك!!

أهي التجربة التي حاربت أباك آدم، إذ لم يكتف بما وهبه الله من نعم. بل أراد أن يكبر حتى يصير مثل الله؟!!

ومن أنت يا أخي حتى تتمجد؟! هل للتراب مجد، أو للرماد كرامة، أو للعدم احترام وهيبة؟ ثم ألست خاطئًا مثلي. وإن كان الله قد سترك واخفى عيوبك عن الناس؟ فهل للخاطئ مجد، وهل للضعيف كرامة؟ إذن لماذا تمجد نفسك، وأنت عرف حقيقتك بكل ما فيها من خطايا ونقائص وعيوب...

هل تفعل هذا لأن الناس لم يلمسوا حقارتك بعد، ولم يعلموا كل شيء من ماضيك، ولم يكتشفوا كل ضعفاتك، ولم تظهر أمامهم أخطاؤك؟ لماذا إذن تخدعهم وأنت تعلم؟ بل لماذا تخدع نفسك؛ والخداع لا يفيدك شيئًا؟؟ ألهذا الحد تستغل ستر الله وكتمانه حالتك عن الناس... أتود إذن أن يعلن للآخرين أفكارك وأحاسيسك ورغابتك المكبوتة...!!

ثم لماذا تبحث عن مجد زائل، لا يصحبك بعد الموت، ولا يقف معك في يوم الدينونة، أمام الديان العادل، الذي لا يتأثر في حكمه عليك برأي الناس فيك، لأن كل شيء مستور عريان قدامه...

ألا يزال عزيزًا عندك مدح الناس؟ ألست تعرف أن مديحهم زائف: لأنه يكون أحيانًا على سبيل المجاملة أو التشجيع أو التملق أو الخجل، كما أنهم –حتى صدقوا وأخلصوا– فهم إنما يحكمون حسب الظاهر وليس فيهم من يقرأ أفكارك، أو يعرف نياتك، أو يدخل إلى قلبك ليفحص ما فيه...

يا أخي الحبيب: إني ولا شك قد أثقلت عليك بأفكار متجمعة، فهل تريد أن أقص عليك قصة، لتكن إذن قصه نبوخذ نصر: هل تعرف كيف نسب لنفسه مجدًا زائلًا؟ وهل تعرف كيف كانت نهايته؟ إذن ليته يكون درسًا لـك...

أتراك تضايقت؟ سامح ضعفي، وأسلوبي الخشن في التعبير... ولكن أهي عادتك باستمرار أن تتضايق من شخص يكلمك بصراحة: لا يتملقك، ولا يستعمل معك ألفاظ التفخيم التي يستعملها الناس...؟ لماذا؟ الأولى بك يا أخي العزيز أن تحب هذا الأسلوب لأنه يوقفك أمام حقيقتك. وما أشد احتياجك غلى الوقوف أمام هذه الحقيقة، حتى تعرف نفسك، تلك المعرفة اللازمة لخلاصك...

---

[1] نظير جيد "انطلاق الروح"، مجلة مدارس الأحد، السنة السادسة، العدد الثالث، أبريل ١٩٥٢م.

ولكن دعنا نناقش الأمر معًا. لماذا تريد أن تظهر عظيمًا أمام الآخرين؟ أهو مركب النقص؟ هل تشعر في ذاتك أنك في درجة حقيرة وتريد أن تعوض ذلك بأن تكتسب مدح الناس بكافة الطرق: إن مدحوك سررت، وإن هاجموك دافعت بحراره عن نفسك حتى لا تظهر أمامهم معيبًا، وإن وقفوا منك محايدين لا مدح ولا مهاجمه، لم يعجبك هذا أيضًا وأخذت تتسول مدحهم بأن تحدثهم عن فضائلك حتى يعجبوا بك فيمدحوك...

أهذا هي الحقيقة؟ وإن كانت كذلك، فلنحاول مناقشتها معًا.

حسن يا أخي أن تشعر بأنك ناقص وخاطئ وضعيف وأقل من الناس جميعًا، ولكن علاج هذا النقص لا يأتي بإضافة نقص جديد إليه عن طريق محبة مدح الناس، إنما يأتي بتكميل الذات وإصلاح أمرها...

لماذا يهمك رأي الناس فيك ومدحهم إياك؟ ألعلك ستدخل ملكوت الله إن رشحك الناس لهذا؟! إذن فاعلم أن كثيرًا جدًا من الذين يمدحهم الناس سيلقون في البحيرة المتقدة بالنار والكبريت... "وَيْلٌ لَكُمْ إِذَا قَالَ فِيكُمْ جَمِيعُ النَّاسِ حَسَنًا" (لو٦: ٢٦). مدح الناس يا صديقي وقتي وزائل، وهم لا يثبتون على حال: الذين هتفوا للمسيح كملك، صرخوا أيضًا قائلين: "اصْلِبْهُ! اصْلِبْهُ!" (لو٢٣: ٢١)، ومدح الناس أيضًا زائف لأنهم لا يعرفون الحقيقة تمامًا.

إليك سؤال يهمني أن تجيب عليه إجابة صريحة: ماذا يكون شعورك عندما يمدحك الناس وأنت تعرف من خفاياك ما يخجل؟ هل تنسى أثناء مدحهم تلك الخطايا التي لو عرفوها عنك لطردوك خارج المجمع؟ أم أنت تتناساها؟ أم تعتبرها مكدرات لا يجب أن تظهر أثناء نشوتك بمديح الآخرين؟ أذن فأنت يهمك فقط خارج الكأس، يهمك أن تكون كالقبور المبيضة من الخارج ومن الداخل عظام نتنة؟! إذن فأنت تهمك الحياة الأرضية فقط ولا تأبه للحياة الأبدية. صارح نفسك يا أخي المحبوب بحقيقة مشاعرك، واعترف بهذا بينك وبين نفسك أولًا، ثم أسكب هذه الذات أمام أب اعترافك، أسكبها في بكاء وأنين والم مر.

وإليك ما يجب أن تشعر به عندما يمدحك الناس:

١- أشعر أولًا أنك ربما تكون مرائيًا. تظهر للناس غير ما تبطن. قل لنفسك في صراحة "إنني شخص خاطئ دنس، وعندما أجلس إلى أب اعترافي أكاد أذوب خجلًا، وعندما أحاسب نفسي على خطاياي تنسحق نفسي ندمًا وشعورًا بالخسة والحقارة وتصغر ذاتي أمام عيني، وعندما أقف للصلاة أشعر أنني غير مستحق أن أرفع نظري إلى فوق... فلماذا إذن يمدحني الناس. ألعلني مرائي؟ ألعلني ذو وجهين: أظهر أمام الناس بشخصية، وحقيقتي شخصية أخرى؟ هل أنا ممثل؟ ربما أكون...".

٢- أشعر أن مدح الناس لك ربما يجعلك تستوفي أجرك على الأرض فلا تنال أجر في السماء. وهكذا يضيع إكليلك بثمن بخس. إن مدحك الناس فخير لك أن تحزن. أحزن على إكليلك الذي يوشك أن يضيع. وهذا الحزن المقدس يصفي نفسك ويجعل روحك تنطلق بالأكثر.

٣- عند مدح الناس لك أشعر أنك ربما تكون مختلسًا: قد سلبت مجد الله ونسبته إلى نفسك. لقد قال السيد المسيح: "فَلْيُضِئْ نُورُكُمْ هكَذَا قُدَّامَ النَّاسِ، لِكَيْ يَرَوْا أَعْمَالَكُمُ الْحَسَنَةَ، وَيُمَجِّدُوا أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ" (مت٥: ١٦)، فإن

كان المجد قد رجع إليك أنت بدلًا من الآب، فربما يكون هذا اختلاسًا وأنت لا تدري، أو أنت تدري. عندما تصلي وتقول: "لأَنَّ لَكَ الْمُلْكَ، وَالْقُوَّةَ، وَالْمَجْدَ" (مت٦: ١٣)، أنب نفسك التي تريد أن يكون المجد لها فتنافس الله في قوته: "لَيْسَ لَنَا يَا رَبُّ لَيْسَ لَنَا، لكِنْ لاسْمِكَ أَعْطِ مَجْدًا" (مز١١٥: ١).

٤- عندما يمدحك الناس أنكر ذاتك، ووجه أنظارهم إلى الله، في غير رياء وفي غير تظاهر بالتواضع. أذكر لهم أنك خاطئ وضعيف، وأن الله هو الذي فعل الأمر الذي يستحق المديح وكما توجه هذا الكلام على الآخرين توجه به أيضًا إلى نفسك، واقتنع به حتى لا تعود فتنتفخ.

٥- إذا وجدت البعض قد بدأ قصة أو حديثًا سينتهي بمدحك حاول أن تغير مجرى الحديث أو على الأقل لا تسر بالمدح، وانسبه إلى الله عن اقتناع.

٦- عندما يمدحك الناس تذكر هاتين الآيتين الجميلتين جدًا: "مَجْدًا مِنَ النَّاسِ لَسْتُ أَقْبَلُ" (يو٥: ٤١)، "مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ" (يو١٧: ٥)، أحفظ هاتين الآيتين ورددهما كثيرًا في فكرك...

٧- وعندما يمدحك الناس تذكر خطاياك، واترك ضميرك يؤنبك حتى يكون هناك توازن بين داخلك وبين مدح الناس من الخارج.

وأخيرًا إن كان هذا هو المطلوب منك عندما يسعى إليك مدح الناس، فبديهي جدًا أنك لا تسعى بنفسك إلى طلب هذا المديح أو استجدائه مما سنرجع إليه في المقال القادم إن شاء الرب وعشنا. صل من أجلي.

نظير جيد